إسهامات مولود معمري في الانثروبولوجيا

أ. يسين كرام – جامعة سطيف2- الجزائر.

الملخص :

مولود معمري، شعلة فكرية بامتياز. جمع بين الأدب واللسانيات والأنثروبولوجيا. وعلى الرغم من أن هذه الميادين الفكرية الثلاث عنده ممتزجة و متداخلة فيما بينها ومن العسير فصل بعضها عن بعض، إلا أن هذه الورقة البحثية هدفها فقط هو الإشارة إلى إسهامات معمري في الانثروبولوجيا دون سلخها تاما عن أعماله الأدبية واللسانية. ولما كان معمري الأنثروبولوجي لم يكتشف بعد فإن هذه الدراسة لا تطمح أكثر من لفت الانتباه إلى هذه الشعلة الفكرية وإسهاماتها الأنثروبولوجية.

Abstract :

Mouloud Mammeri is an intellectual flame of excellence. He combined between literature linguistics and anthropology. Although are intertwined and interrelated, this paper is only intended to refer to the contributions of Mammeri anthropology without being completely stripped of his literary and linguistic works. As he was not discorvered, this study does not aspire more than drawing attention to this intllectual and its anthropological conributions.

مقدمة:

إن الكتابة عن مولود معمري ليس كالكتابة عن باقي الوجوه الفكرية و الأدبية في الجزائر. فالذي يتحدث عنه يجد نفسه، عن وعي أو دون وعي، مطالب باتخاذ موقف تجاهه وذلك بالتفكير ضده أو معه. فيبدو أنه لا يوجد مفكر أسيئ فهمه في الجزائر ك:مولود معمري. هذا نظرا إلى الموضوعات التي اشتغل عليها واهتم بها في دراساته وأبحاثه التي كانت أصلا موضع خلاف وجدال. والقارئ لهذا المشروع الفكري الذي اشتغل عليه معمري يجد أن كل أعماله ودراساته وبحوثه تسعى للإجابة عن سؤال مركزي يتمثل في: من أنا؟ أو بالأحرى من نحن؟. وهذا السؤال هو سؤال الهوية، والسؤال الذي يشتغل حول

الهوية في حقيقة الأمر يحيلنا إلى البحث في الأصل، في اللغة، في الثقافة، في ما كل ينتجه الإنسان وهذا هو صلب الموضوع الذي تدرسه الانثروبولوجيا.

إن الثقافة الأمازيغية التي كرس معمري حياته دفاعا عنها قد تعرضت لاغتراب مزدوج. **الأول:** كان قبل الاستقلال وقد مارسه عليها الاحتلال الفرنسي، وكذا كل الاحتلالات التي تعرضت لها الجزائر عبر التاريخ، الذي سعى إلى طمسها وتشويهها وممارسة العنف عليها بشتى الطرق والأساليب وحتى بالعلم الذي من المفروض أنه محايد وموضوعي في نتائجه. إلا أن لدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها الاحتلال في شمال إفريقيا كانت في أغلبها لأغراض سياسية واستعمارية بحته. فمن جهة درس المجتمعات المغاربية من أجل فهمها واستيعاب سلوكاتها وقراءة ردّات فعلها حتى يسهل التحكم فيها والسيطرة عليها، ومن جهة أخرى عمل على جعل النتائج تتماشى والرسالة التي يدّعي أنه جاء من أجلها والمتمثلة في تحضير هذه الشعوب البدائية التي، حسبه، تعيش حياة تعيسة ومتخلفة. حيث اعتبر أن الشعوب المغاربية شعوب همجية مازالت تعيش حياة بدائية قذرة وفوضوية ليس لها قوانين تنظمها ولا مؤسسات توجهها، بل هم في أحسن أحوالهم كومة من الأفراد يطمحون إلى النظام و التحضر والتقدم؛ فكانت فرنسا بذلك حاملة لرسالة نبيلة تتمثل في إنقاذ هذه الشعوب ونقلها من حالة الهمجية التي هم فيها إلى حالة التحضر والإنسانية. وبذلك تكون قد أعطت الشرعية لنفسها أمام العالم لاحتلالها واستدمارها. أما حالة الاغتراب **الثانية:** فقد تعرضت لها بعد الاستقلال أو لنقل قبل ذلك بقليل حيث اصطدمت بإديولوجيا معادية وإقصائية لمكون كبير جدا من الهوية الجزائرية والمتمثل في البعد الأمازيغي. هذه الإيديولوجية تدعي أن للجزائر لغة واحدة هي العربية ودين واحد هو الإسلام.أما البعد الأمازيغي للجزائر فيمكن الاستغناء عنه باعتبار أن الإسلام يجُبُ ما قبله.

لقد كان **مولود معمري** شاهدا ومعاصرا لهذا الاغتراب المزدوج الذي كان يحاصر البعد الأمازيغي من الداخل ومن الخارج فالداخلي كان يمثله دعاة القومية العربية وأما الخارجي فكان يمثله الاحتلال الفرنسي. **مولود معمري** الذي ولد وتترع في منطقة القبائل وكان متشبعا بالثقافة الأمازيغية وناطقا باللهجة القبائلية وكان سعيدا بانتمائه لهذا المجتمع الذي كان

تسوده قيم الحب والاحترام والتعاون والنظام والحشمة والحياء و العمل والاجتهاد... ليصطدم بالاحتلال الفرنسي الذي يصفه بالهمجي يدنو إلى مرتبة الحيوان منه إلى الإنسان، و اديولوجية تطالبه بالتخلي عن موروثه الأمازيغي ويعتنق لغة القرآن وكأن إسلامه لا يكتمل دون أن يكون لسانه عربي مبين.*

وكان **مولود معمري** شاهدا على هذا الوضع المأساوي الذي تعرضت له الهوية الجزائرية عموما و الأمازيغية بالخصوص فكانت أعماله كلها سعيا وراء إعادة الاعتبار لها، وذلك من خلال أعماله الأدبية ودراساته اللسانية وبحوثه الأنثروبولوجية؛ التي وجهها للكشف والتعريف بالثقافة الأمازيغية بكل تنوعها وثرائها. وكانت بداياته في شقها القبائلي حيث سلط الضوء على الأدب والشعر القبائلي الذي عمل على جمعه وتدوينه وترجمته. لتتسع دراساته فيما بعد لتشمل كل مكونات الثقافة الأمازيغية عبر ربوع الوطن. حيث جند فرقة بحث حين كان على رأس مركز الدراسات الأنثروبولوجية لدراسة منطقة القورارا ليكتشف في الأهليل القورارا حكمة تمتد جذورها مئات السنين. وهو في بحوثه حول الثقافة الأمازيغية أدرك أن تراثها في أغلبه شفوي محفور في ذاكرة الجماعة، فكثف جهوده العلمية والفكرية من أجل إعادة إحياء اللغة الأمازيغية وذلك بإعادة جمع حروفها وكلماتها وضبطها وقوننتها بطريقة علمية وأكاديمية حتى يتم الكتابة بها.

ونحن في مقالنا هذا سنحاول أن نسلط الضوء فقط على جزء من الدراسات الأنثروبولوجية التي قدمها **معمري**، علما أن أعماله الأدبية ودراساته اللسانية لم تكن بمعزل عن دراساته الأنثروبولوجية. فهو من الصعب التمييز بين **مولود معمري** الأديب واللساني و الأنثروبولوجي لأن كل هذه الميادين المعرفية متداخلة ومتكاملة عنده. وقد تبين لنا ونحن نعد هذا المقال أن **معمري** معروف كثيرا كأديب وروائي أما **معمري** الأنثروبولوجي فمازال لم يكتشف بعد. لهذا جاءت دراستنا، والتي لا تعد بالكثير لكن يمكن الاعتماد عليها كمدخل، من أجل التعريف بإسهامات هذا المفكر في الميداني الأنثروبولوجي. وعليه فان مداخلتنا ستحاول الإجابة عن السؤال التالي: ماهي إسهامات **مولود معمري** في الانثروبولوجيا؟ وقبل ذلك كان لزاما علينا أن نشير إلى المسيرة الفكرية النضالية لهذا المثقف، ولما كانت

إسهاماته الفكرية متعددة ومن غير الممكن فصلها عن بعضها البعض فانه أيضا كان لزاما علينا الإشارة إلى أعماله الأدبية ودراساته اللسانية حتى لا تبقى دراستنا حول الانثروبولوجيا مبتورة عن السياق الفكري العام لمولود معمري

مولود معمري: مسيرة مثقف مناضل:

ولد **مولود معمري Mouloud Mammeri** [1] في منطقة القبائل ب: تيزي وزو في قرية ايث يني عام 1917م .توفي اثر حادث سيارة في عين الدفلى وهو في طريقة إلى الجزائر عائدا من ملتقى في جامعة وجده المغربية. ترعرع في أحضان أسرة محافظة وكان ابوه إماما للقرية. تلقى تعليمه الأولي في الابتدائية التي أسستها فرنسا في قريته عام 1883م. وهناك أخذ دروسه الأولى في اللغة الفرنسية. وفي سن الحادية عشر من عمره انتقل إلى الرباط عند عمه ليواصل الدراسة هناك. و سفره هذا أتاح له الاحتكاك بثقافات أخرى ما أحدث له صدمة على مكتسباته القبلية وعلى عالمه الداخلي الذي ورثه من بني جلدته في منطقة القبائل حيث سمحت له رحلته إلى المغرب باكتشاف عالم منفتح متنوع ومختلف عن ما رآه في قريته. وبعد أربعة سنوات من مكوثه في المغرب عاد إلى الجزائر العاصمة ليواصل دراسة في ثانوية بيجو(ثانوية عبد القادر بباب الواد حاليا). ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى تم تجنيده في مدرسة التلاميذ الضباط في شرشال لكن سرعان ما تم إخلاء سبيله ليسجل بعد ذلك في كلية الآداب في العاصمة. لكن بعد دخول قوات الحلفاء شمال إفريقيا تم تجنيده من جديد. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها شارك بفرنسا في مسابقة الأستاذية في تخصص الأدب وبعد نجاحه عين أستاذا في إحدى ثانويات المدية عام **1947** وبعدها تحول إلى ثانوية بن عكنون بالجزائر العاصمة. في سنة **1952**نشر أول رواية له بعنوان: **الربوة المنسية** la colline oublié التي أثارت جدلا واسعا وجلبت له عداءات كبيرة مع دعاة القومية العربية في الجزائر. لينشر بعدها رواية أخرى: **نوم العادل** le sommeil du juste نشرها عام **1955**. وبعد اندلاع الثورة وهب قلمه للدفاع عن القضية الجزائرية وإدانة الاستعمار الفرنسي وفضحه أمام العالم عن طريق رسائل كان يكتبها لهيئة الأمم المتحدة، ما جعله موضع ملاحقة واستهداف من طرف الاستعمار ما دفعه إلى الهرب إلى

المغرب عام **1957** وبقي هناك إلى غاية **1962**. ليعود إلى الجزائر بعدها ليدرّس في كلية الآداب في جامعة الجزائر مقياس الإثنوغرافيا المغاربية إلى غاية**1971**.و بالموازاة كان يقدم أيضا دروسا تطوعية حول الثقافة الأمازيغية وكان يحضرها طلبة لم تكن أهدافهم حينها إثراء معارفهم وأفكارهم فيما يتعلق بالثقافة الأمازيغية بقدر ما كانوا مدفوعين بأفكارهم النضالية المطالبة بالعدالة بالاجتماعية والثقافية. ومنذ هذه المرحلة ركّز اهتماماته الفكرية وبحوثه العلمية وتوجيهها للتعريف بالثقافة واللغة والأدب الأمازيغي. ومما ساعده كثيرا في تطوير بحوثه ودراساته الميدانية ترأسه ل: **مركز البحوث الأنثروبولوجية، ماقبل التاريخ و الإثنوغرافيا بالجزائر العاصمة (C.A.R.P.E)** بين عامي **1969**و**1979** ويعد أول جزائري يكون على رأس هذا المركز. وأصدر هذا المركز مجلة سنوية تحمل اسم **ليبيكا LYBICA** تُعنى بالدراسات ماقبل التاريخ وكذا الانثروبولوجيا والاثنولوجيا. وقبل ذلك تولى رئاسة اتحاد الكتاب الجزائريين بين عامي **1963**إلى غاية **1967**وتنحى من هذا الاتحاد بسبب خلافاته مع زملائه الكتاب حول دور المثقف في المجتمع. وفي سنة **1982** أصدر روايته الرابعة العابرLa traversée وفي نفس السنة بباريس أسس مركز الدراسات والبحوث الأمازيغية **(CERAM)** وبعدها في **1985** أسس مجلة أوال Awal في باريس بالتعاون مع بيار بورديو. لينهمك بعدها في مواصلة البحوث والدراسات وكتابة المقالات والمشاركة في الملتقيات لتتلقفه الموت منا في عين الدفلى وهو عائد من أحد الملتقيات في جامعة وجده المغربية سنة **1989**م. والمتأمل للمسيرة الفكرية لمعمري يدرك أنه لم يعرف الراحة بل راحته أصلا كانت حين ينتقل من دراسة إلى أخرى ومن بحث إلى آخر ومن مقال إلى مقال ومن رواية إلى أخرى. فحياته كلها وهبها، للعلم، للفكر، للثقافة، للجزائر، بل للإنسانية عموما.

أعـــــــــــــمالـه:

تعددت أعمال **مولود معمري** وتنوعت بين عدة مجالات فكرية فقد كتب في الأدب والمسرح واللسانيات و الانثروبولوجيا و الاثنولوجيا والتاريخ بالإضافة إلى محاولات في الترجمة. وكانت كل مؤلفاته باللغة الفرنسية وبعضها الأمازيغية. أما باللغة العربية فهو لم يكتب

بها. إلا أنه يُكن احتراما كبيرا لها كلغة ويشيد بمكانتها ويعتبرها لغة تتمتع بقدرة كبيرة على التعبير عن المشاعر والأحاسيس الإنسانية. ويذكر في إحدى المقابلات التي أجريت معه أنه حاول تعلم اللغة العربية لكنه فشل في ذلك وقد عبر عن ذلك بأسلوب مرح بقوله:" **و فشلي في تعلم لغة بلادي أثبت غبائي عن جدارة.**" أما بخصوص استعماله للغة الفرنسية فإنه يرى أنه لا حرج في ذلك ولا يعيبه شيء مادامت أعماله الأدبية تعبر عن آلام وأمال الجزائريين.(2).

وبخصوص مؤلفاته فيمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام هي: الأدب، اللسانيات الانثروبولوجيا.

1/ الأعمال الأدبية: الروايات المسرحيات:

1. La colline oubliée, Paris, Plon, 1952,. (roman).

2. Le sommeil du juste, Paris, Plon, 1955. (roman).

3. L'opium et le bâton, Paris, Plon, 1965. (Roman).

4. Le banquet, Paris, Librairie académique Perrin, 1973,(essai et pièce de théâtre).

5. La traversée, Paris, Plon, 1982,. (roman).

6. Le Foehn, Paris, Publisud, 1982, 94 p. (théâtre).

يعد **مولود معمري** من الآباء المؤسسين للأدب الجزائري المكتوب بالغة الفرنسية مع كل من مولود فرعون ومحمد ديب. وكانت كل أعماله الأدبية تتحدث عن الجزائر. فعلى الرغم من أنها كانت في ظاهرها محلية لأنها تتحدث عن المجتمع الجزائري ومعاناته إلا أنها في جوهرها عالمية تطمح إلى الكشف عن معانات وآمال الإنسان عموما من خلال الفرد الجزائري. وعلى الرغم من أن الروايات التي كتبها **معمري** هي أعمال أدبية لكن يمكن اعتبارها أيضا أعمالا أنثروبولوجية واثنولوجية حول المجتمع الجزائري لأنها تصف لنا الثقافة الجزائرية من خلال ابراز عاداته وتقاليده وسلوكاته وأنماط تفاعله مع الحياة. فبرز معمري

كمناضل ثقافي وسياسي ملتزم يدافع عن الهوية والثقافة الجزائرية و بالخصوص في بعدها الأمازيغي.

2/ الأعمال اللسانية الأمازيغية:

1.Lexique français-touareg, Paris, Arts et Métiers graphiques, 1967.

2.Tajerrumt n tmazigt (tantala taqbaylit) Paris, Maspero, 1976.

3.Amawal Tamazigt-français et français-tamazigt, Paris, Imedyazen, 1980.

4.. Précis de grammaire berbère, Paris, Awal, 1988.

لقد أدرك **معمري** أن الثقافة الأمازيغية هي ثقافة شفهية بامتياز وأن كل تراثها الأدبي محفور في الذاكرة الجماعية يتم تناقله شفهيا جيلا عن جيل. إلا أن هذا التراث الشفهي يبقى دائما مهدد دائما بالضياع ومعرض للزوال مالم يتم التكفل به. فقد أدرك أن كل شيخ يشرف على الموت فكأنما عدة كتب جمعت لتحرق يُنتظر فقط إعلان موته حتى تتم مراسيم حرقها.

إن الثقافة الأمازيغية ثقافة أعلت من قيمة الصوت على الكلمة، فالصوت كان حاضرا دائما وبكثافة عكس الكلمة المكتوبة التي لم يتم الاهتمام بها كثيرا. فكأن الأمازيغي لا يتأثر بالكلمة المكتوبة بقدر ما يتأثر بالصوت، لذلك كانت الكلمة المسموعة عندهم أقدس بكثير من الكلمة المكتوبة. وكنتيجة لذلك فإن جل التراث الأدبي الأمازيغي بقي صوتا ولم يدون بحروف. وعلى الرغم من أن الأمازيغ قد ابتكروا الكتابة منذ قرون عدة تعرف بتيفيناغ، لكنها لم تكن لغة العلم والمعرفة فنجدهم كتبوا باللاتينية والعربية والفرنسية. ويبدوا أن عدم كتابتهم بالأمازيغية هو ما جعل الدارسين يقولون أنها ثقافتها شفهية. لهذا جاءت الأبحاث والأعمال الليسانية **لمولود معمري** في هذا الجانب لرد الاعتبار للكتابة الأمازيغية من خلال جمع حروفها وألفاظها وإعادة تحيينها وضبطها وقوننتها بطريقة علمية وأكاديمية حتى تستجيب لمتطلبات عصر يعتبر أن الكتابة هي المركز و أن الصوت يمثل الهامش.

3/ الدراسات الأنثروبولوجية:

1 « La société berbère », Rabat, Aguedal, n°5-6, 1938 et n°1, 1939.

2. Les Isefra de Si Mohand ou M'hand, texte berbère et traduction, paris, Maspero, 1969.

3. Poèmes kabyles anciens, Textes berbères et français, Paris, Maspero, 1980.

4. L'Ahellil du Gourara, Paris, M.S.H., 1984.

5. Yennas-yas Ccix Mohand, Alger, Laphomic, 1989.

6. Machaho, contes berbères de Kabylie, Paris, Bordas, 1980.

7. Tellem chaho, contes berbères de Kabylie, Paris, Bordas, 1980.

8. Culture savante, culture vécue (études 1936 - 1989), Alger, Tala, 1991.

9. Recueil posthume, Inna yas Ccix Muend : Cheikh Mohand a dit, CNRPAH, 2005.

"المجتمع الأمازيغي": أو تعذر الفهم من الداخل.

المجتمع الأمازيغي La société berbère*، هو عنوان أول بحث يقوم بانجاز **مولود معمري** بطلب من أستاذه في الفلسفة جون غرونيي **Jean Grenier**. وهذا البحث عبارة عن مقال ايثنوغرافي حول المجتمع الأمازيغي، أنجزه **معمري** وهو في سن الواحد والعشرين ربيعا. وقد تم نشره عام 1938 في مجلة **Aguedal** الصادرة في الرباط ضمن العدد الخامس والسادس.

وحضي هذا المقال بمقدمة قصيرة كتبها أستاذه في الفلسفة جون غرونيي يشيد بهذا العمل ويعتبر بادرة في عالم الاثنوغرافيا المحلية وقطيعة معرفية مع ما كان سائدا في ذلك الوقت. لأن الدراسات الأنثروبولوجية حينها كان يقوم بها الغربيون على الأهالي.ما يعني أن الدراسات كانت دائما تقوم على النظرة الخارجية. وكان هذا المقال ايضا قطيعة مع الفكرة التي كان يتداولها الغرب وهي أن الأهالي مازالوا قصرا من الناحية العلمية والمعرفية لهذا شرعنوا لأنفسهم ممارسة الوصاية العلمية عليهم.[3] فلما كان **مولود معمري** من الأهالي وكتب عن مجتمعه فهذا يعني أن الأهالي ليسوا قصرا من الناحية العلمية والمعرفية لأنه بإمكانهم الكتابة عن أنفسهم.

وأن يكتب الأهالي عن أنفسهم هذا يعني أن منهج الدراسة قد تغير قليلا فبعدما كانت النظرة من الخرج فقد أصبحت الآن من الداخل. ولما تغير منهج الدراسة وأصبح يعتمد على النظرة الداخلية بعدما كان يقوم على النظرة الخارجية فان النتائج من المفترض أن تكون مختلفة لأن زاوية الرؤية قد تغيرت. لكن القارئ لمقال **معمري** يكتشف أن النتائج التي توصل إليها لا تختلف كثيرا عما توصل إليه الاستعمار، وأن الأحكام أطلقها بعض المستعمرين قد أكدها **معمري** في مقاله. والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو: لماذا كانت النتائج التي توصل إليها **مولود معمري** في دراسته للمجتمع الأمازيغي تسير في نفس الاتجاه الذي خطه المستعمر ؟.

لقد أجرت **مليكة كباس** في كتاب جماعي يحمل عنوان: **مولود معمري** دراسة رائعة ودقيقة لهذا المقال الذي كتبه معمري حول المجتمع الأمازيغي ويمكن ضغط دراستها في أنها تحاول الإجابة عن السؤال الذي طرحناه سابقا. حيث حاولت **مليكة كباس** تحليل مقال **معمري** وتوصل في دراسته إلى نتائج مهمة تكشف عن المرتكزات التي اعتمد عليها **معمري** في مقاله. وسنحاول أن نذكر بعضها:

1- حسب **مليكة كباس** فإن دراسة معمري حتى وان كانت اثنولوجيا محلية تعتمد نظرة داخلية فإنها في معضمها تتبنى الرؤية الخارجية، **فمعمري** في دراسته أبقى على مسافة بينه وبين موضوع الدراسة بمعنى أنه لا يوحي إلى القارئ أنه ينتمي إلى هذا المجتمع الذي يكتب

عنه. وهذا واضح في طريقة إشارته إلى هذا المجتمع[4]. فمثلا يقول: "المجتمع الأمازيغي"، "الأمازيغ، القبائل"، "حين نسمع حديثا عن القبائل"، "لهذا فإن الأمازيغ"، "الخطأ، الذي وقع فيه الأمازيغ..." ولا يقول: إن مجتمعنا الأمازيغي، أو نحن القبائل، لهذا فإن مجتمعنا... **فمعمري** في مقاله هذا لا يوحي إلى القارئ أنه ينتمي إلى هذا المجتمع الذي يكتب عنه.

2- الأدوات التحليلية التي اعتمدها **معمري** في مقاله كانت قائمة على آليات التحليل الفكر الغربي الكلاسيكي وهي: العقل، المنطق، النظام. فكانت كل أحكامه حول المجتمع الأمازيغي خاضعة لهذه المعايير والأدوات: العقل، المنطق، النظام. فكانت بذلك انعكاسا لها[5] . ومثال ذلك:

- "لا يوجد مايبرر منطقيا..." *
- "في مجتمع تغيب فيه قواعد تحكم سلوكات الأفراد"
- "ليس بمقدور تحديد في المجتمع نظام منطقي..."
- "خاصية كل تجمع أمازيغي هو أنه لا عقلاني..."

هذه المسافة التي وضعها **معمري** بينه وبين مجتمعه واعتماده على آليات التحليل التي اقتبسها من الفكر الغربي الكلاسيكي جعلاه يطلق أحكاما قاسية على المجتمع الأمازيغي[6]. مثل:

-"روح سياسية بداية جدا"
- المجتمع الأمازيغي" مجتمع غير مستقر"
- مجتمع يتميز ب: "طغيان العائلة والقبيلة"
- "كل تاريخ الأمازيغ هو تاريخ توالي الإنهيارات والكوارث..."...

حتى أنه في بعض الأحياء يطلق أحكاما تقوم على النفي أي يركز على ما لا تملكه أو مالا يوجد عند الأمازيغ[7]. ومثال ذلك:

-"الأمازيغ لم يؤسسوا أبدا دولة".

- "المجتمع الأمازيغي لم يؤسس سلطة قوية بما فيها الكفاية من أجل فرض الواجبات وإقامة العدالة".

- "... لم يعرفوا تقسيم العمل..."

-"الأمازيغ لا يعرفون كيف يزاوجون بين العقل العملي والعقل الفكري...".

على الرغم من هذه الأحكام القاسية التي أطلقها **معمري** على المجتمع الأمازيغي إلا أنه دائما يحاول أن يقدم تبريرات لها عن طريق إصدار أحكام أخرى مشرفة تسعى إلى إظهار المجتمع الأمازيغي على أنه مجتمع يتمتع بالمساواة السياسية والاقتصادية، و أنه يحترم الحريات، وقائم على العدل والديمقراطية[8]. ومثال ذلك:

-"السلالة الأمازيغية سلالة متشبثة بمكوناتها فرغم كل التغييرات الخارجية في أنماط عيشها إلا أنها بقيت وفيت لديانة أسلافها".

- "لهذا السبب بقي الأمازيغ على عهدهم ولم يخضعوا كلية على الرغم من الإحتلالات المتتالية التي شهدتها إفريقيا".

- "كل فرد يجلب لقمة عيشه من حقوله وليس له أية تبعية في الجانب للآخرين، كما لا وجود للتفاوت المادي بينهم."

- "أي قرار مهما كان صغيرا في بلاد (الأمازيغ) يتطلب موافقة الجميع".

- "الفلسفة الأمازيغية هي فلسفة عملية تزدري التأملات التي لا تفضي إلى نتائج عملية وملموسة".

في الخاتمة فقط يكشف **معمري** عن انتمائه للمجتمع الذي يكتب عنه. وينتقل من حالة الوصف الخارجية إلى حالة الوصف الداخلية. وكشفه عن انتمائه لهذا المجتمع الذي يقوم بوصفه هي نوع من المصالحة مع الذات واعتراف بالوضع المأساوي يعيشه الأهالي وهو مرغم على وصف مجتمعه كما يمليه عليه الآخر (المحتل).

أرادت مليكة كباس في دراستها حول مقال **معمري** أن تبين لنا أن معمري لم يستطع أن يتخلص، وهو في الواحد والعشرون من عمره، من أملاءات الاستعمار الذي احتفل قبل ستة سنوات من كتابته **"المجتمع الأمازيغي"** بمؤويته في الجزائر. فعلى الرغم من أن

دراسة **معمري** كانت من الداخل لكنها تعذر عليها أن تكون كذلك. وقد أرجعت ذلك **مليكة كباس** إلى التكوين الذي تلقاه من الفرنسيين، ولم تكن النظرة الخارجية كاختيار بل كأمر فرض عليه. وقد عبر عن ذلك **معمري** في الخاتمة بقوله:

- " ... انتقالي من الثقافة الأمازيغية إلى نمط حياة آخر مختلف اختلافا جذريا عنها، كان بمثابة صدمة لي".

- "...كل الحقائق التي تعلمتها وجدت نفسي مرغم على الاعتراف بخطئها و زيغها".

هذا الشعور الذي لم يستطع **معمري** إخفائه

هذا المقال الذي كتبه **معمري** كان بمثابة النص التأسيسي للدراسات الأنثروبولوجية عنده وعلى الرغم من أنه نص قاسي في أحكامه على المجتمع الأمازيغي إلا أنه يكشف لنا أن النظرة الخارجية لن تستطيع أن تصل إلى فهم حقيقي لنمط عيش المجتمع الجزائري وأنها في أحسن أحوالها تمارس عليه العنف الفكري وتسيء إليه وتشوه صورته.[9] لهذا حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن الثقافة الجزائرية وبالخصوص في بعدها الأمازيغي وكان حريصا في دراساته أن يفهم ثقافته من الداخل دون الاعتماد على معايير غريبة عنها. فقد أدرك فيما بعد أن لكل ثقافة منطق وعقل ونظام محايث لها و أن لكل شعب تصوره الخاص للحرية و العدالة و الديموقراطية، وأن الدارس الحقيقي هو ذلك الذي يفهم الآخرين انطلاقا من ثقافاتهم.

مولود معمري في منطقة القورارا:

لقد كان مسعى **معمري** هو إسماع صوت كل الثقافات الموجودة في الجزائر حيث لم تكن دراساته مقتصرة على منطقة القبائل فقط بل كان حريصا أن تشمل كل المناطق الجزائرية ليجد في صحراء الجزائر و بالتحديد في منطقة القورارا تراثا ضاربا في التاريخ يعبر عن ثقافة المجتمع الصحراوي ورأى أنه تراث جدير بالدراسة والبحث. وقد كان اهتمام **معمري** بمنطقة القورارا وبثقافتها المتمثلة في الأهليل يعود إلى **1971** أي بعد سنتين فقط من ترأسه مركز الدراسات الأنثروبولوجية، حيث جند مجموعة من الباحثين من مختلف التخصصات لدراسة القورارا في كل مناطقها المختلفة.

أدرك معمري أن الدراسات المتعلقة بالتراث الصحراوي تعرض **لنسيان مزدوج**، **الأول**: كان من طرف المستعمر الذي لم يبدي اهتماما كبيرا به عكس المناطق الأخرى في الجزائر مثل: منطقة القبائل والأوراس وغيرها. لأن هذه المناطق أبدت مقاومة ضد الاحتلال الفرنسي فكانت هذه الدراسات الأنثروبولوجية المكثفة حولها كرد فعل لفهمها ومعرفة مكوناتها حتى يسهل اختراقها والسيطرة عليها. أما منطقة الصحراء بحكم البيئة و الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتردي وقساوة الحياة و التعداد السكان القليل كان سهلا اختراقها والسيطرة عليها رغم المقاومات التي أبدتها، وهذا في نظر **معمري** يفسر غياب الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية الكافية حولها.[10] أما **النسيان الثاني**: فكان بعد الاستقلال حين تم اتخاذ موقف إزاء الدراسات الأنثروبولوجية واعتبارها على أنها من بقايا الاستعمار التي ينبغي التخلص منها وهذا لزعم السلطات الوصية أنها تخلق الشقاق والفراق وتهدد الوحدة الجزائرية، ولما كان الأمر كذلك فوجب منع وقمع هذه الدراسات.[11] لكن فيما بعد تم التخلي عن هذه الآراء الرجعية وتم إعادة الاعتبار للدراسات الأنثروبولوجية وإدخالها إلى الجامعات الجزائرية في مطلع التسعينات من القرن الماضي.

قلنا أن اهتمام **معمري** بمنطقة القورارا يعود إلى بداية سنوات السبعينات حين انشأ فرقة بحث ضمت عدت مختصين في ميادين علمية مختلفة: في التاريخ وفي السوسيولوجيا و الاثنولوجيا والطب والموسيقى وقد قدموا لنا دراسة متكاملة حول منطقة القورارا تحت عنوان "**القورارا**" ونشرت في مجلة ليبكا. وأصدر **معمري** عملا آخر يحمل عنوان :" أهليل القورارا" جمع فيه كل أشعار أهليل القورارا وكتبها باللأمازيغية وترجمها إلى الفرنسية وكان عمله هذا أول مؤلف حول هذا الموضوع. وبفضل هذه الأعمال التي أنجزها مولود معمري وفريقه تم انتشال منطقة القورارا من النسيان وتراثها من الضياع. واستنادا إلى هذه الأعمال والدراسات التي انجزت حول أهليل القورارا تم أدراجه من قبل المنظمة العالمية للفنون والثقافة اليونسكو(**l'UNESCO**) ضمن القائمة الممثلة للتراث الإنساني اللامادي في نوفمبر 2005.

مولود معمري: في مسعى فهم وتعريف أهليل القورارا:

أهليل القورار، طقس من الطقوس الشعبية لمنطقة القورارا يقام في الأعياد والمناسبات الدينية وعلى شرف الحجاج، كما يقام أيضا في المناسبات الدنيوية مثل الأفراح والأعراس. ويعرف **مولود معمري** أهليل القورارا:"على أنه امتزاج كل من الإيقاعات الموسيقية والأبيات الشعرية و الحركات الجسدية مع بعضها البعض تحيى إما في المناسبات الدينية أو الدنيوية."[12] و هذا الامتزاج بين الشعر والموسيقى المتناغمة والرقصات الجماعية، يحدث تكاملا وتوازنا وتناغما بين الروح والجسد.

1/ أهليل: اشتقاقا ودلالة:

وفيما يخص تسمية**"أهليل"** يرى **معمري** أنه يمكن أن نجد لها عدت دلالات واشتقاقات تختلف باختلاف المناسبات التي يحيى فيها ال:**أهليل** من حيث هي مناسبات دينية أم دنيوية. فمن حيث الاشتقاق يرى معمري انه يرجع إلى اللغات الحامو-سامية التي نجدها في مختلف اللهجات الأمازيغية وكذا العربية ويذهب أبعد من ذلك ليقول أنه يمكن أن يعود اشتقاقها إلى اللغة العبرية. فالبنسبة لأصلها الأمازيغي يقول أنه يعود إلى لهجة أمازيغ أطلس الصحراء المشتقة من كلمة: **أهليل** التي تعني المدائح الدينية التي تؤدى بطريقة شعرية. أما إذا كان أصلها من العربية :فيعود إلى **التهليل** الذي يعني ترديد للصيغة التوحيدية لله **"لا إله إلا الله"**. أما إذا اعتبرنا أن مصدرها عبري فيرجعه إلى **"تيهي ليم"** التي تعني المزامير أو الترانيم.[13] وهناك من الدارسين من يعتبرها مأخوذة من: **أهل الليل** لكون الأهليل يمارس عادة في الليل. [14] وإشارة معمري إلى الاشتقاقات العبرية والعربية ل" **أهليل** من أجل أن يبين لنا أن هذه المنطقة في مراحلها التاريخية تأثرت باليهود و بالإسلام.

2/ لغة الأهليل:

أما اللغة المستعملة في **الأهاليل** هي الزناتية لكن هناك مقاطع منها بالعربية وهذا بحكم الطابع الديني لها، فحضور اللغة العربية في الأهاليل يفرضه المعطى الديني فبموجبه تمت الحفاظ على هذه الأذكار والتهليلات بلغتها الأصلية.

3/الفرق بين أهليل و ثاقرابث:

وقد دون لنا **معمري** في دراسته 46 نصا من هذه **الأهاليل** و23 نصا من **ثاقرابث** جمعها في خمسة مناطق مختلفة من مناطق القورارا هي: فاتيس و أجير و زاوية دباغ و قروين و قنتور. وهذه **الأهاليل** و**ثاقربين** منها القديمة و منها الجديدة، منها ما يعرف أصحابها ومنها ما نجهل مؤلفوها، لكن الشيء الأكيد، حسب معمري، أن أغلب مؤلفيها كانوا من المرابطين. أما من حيث الفرق بين **أهليل** و**ثاقربث** فيرى **معمري** أنهما في الأصل متقاربان وكلاهما يتم إحيائهما في الليل. لكن يختلفان في طريقة تأديتهما و مستوى تأثيرهما في الأفراد؛ فإذا كان **أهليل** يؤدى في الليل وفي أماكن مفتوحة يكون فيه المؤدون في حالة الوقوف وتكون أكتافهم جنبا إلى جنب، فإن **ثاقرابث** تخشى الأماكن المفتوحة وتفضل الأماكن المغلقة وتؤدى في حالة جلوس وتكون الركب جنبا إلى جنب . أما من حيث المواضيع المعالجة فإن **أهليل** أغلبها دينية أما **ثاقرابث** فأغلبها دنيوية.[15]

4/مواضيع أهليل:

تختلف مواضيع أهليل باختلاف المناسبات التي يؤدى فيها:

فأما الدينية فقد صنف معمري **مواضيعها** إلى ثلاثة أقسام هي:

أ- توحيد الله وتمجيده.

ب- التصوف بشقيه: الأول:الذي يتغنى بالحب الإلهي والثاني: الذي يتغنى بحب الصحابة والأولياء الصالحين.

ج- التغني بالأخلاق والقيم الإسلامية.[16]

أما إذا كانت المناسبات دنيوية فمواضيعها: الأحداث والبطولات المهمة في تاريخ المنطقة، الحب، آلام الحياة ومصاعبها... إلخ. وهذا التمييز بين المواضيع الدينية والدنيوية لا يعني أن هناك فصلا تاما بينهما بل يمكن أن تمتزج مقاطع تحكي أمور دنيوية مع أخرى دينية. وتجدر الإشارة إلى أن كل مناطق القورارا تحيي هذه **الأهاليل** ولا يوجد اختلافا كبيرا في طريقة إحيائها فقط يمكن أن نجد اختلافات بسيطة في مواضيع القصائد الشعرية التي يتم

تداولها وهذا يفرضه اختلاف شيوخها التي تتغير مشاعرهم من شيخ إلى آخر، وأيضا خصائص كل منطقة التي تعرف بتاريخها وبطولاتها الخاصة بها، بمعنى أن الاختلاف يكمن فقط في نص الأشعار التي يتم ذكرها أما طريقة وأماكن وأوقات تأديتها فهي أمور مشتركة فيما بينها. لكن هناك نصوصا ثابتة، الدينية منها بالتحديد، يتم تداولها في كل المناطق.[17]

5/مراحل الأهليل:

باعتبار أن الأهليل يقام في الليل من بدايته إلى طلوع شمس غد جديد فإنه ينقسم إلى ثلاث مراحل ولكل مرحلة ميزتها:

أ/ المسرح: من بداية الليل إلى منتصفه. ويحضرها الجميع.

ب/ اوقروث: من منتصف الليل إلى نهايته.

ج/ ثيرا: من بداية بلوج نجوم الصباح إلى طلوع الشمس. وهي مرحلة مخصصة للعارفين.[18]

6/ أهم شيوخ الأهليل:

أما بالنسبة للشيوخ الذي لهم الفضل في إبداع هذه الأهاليل ذكر لنا معمري بعض الأسماء التي كانت متداولة أثناء إعداده لدراسته حول منطقة القورارا. لكنه لم يتطرق إلى سرد حياتهم واكتفى فقط بذكر أسمائهم وهي:

مولاي لحسن الشرويني (أرسول أسيدي).

ديما عيبي (لوحيد أمولانا).

لالا مرياما (صلى الله عليك أسيدنا).

ياجا باعلي (لالينو).

وآخرون حفظتهم الذاكرة الجماعية فدون معمري أسمائها:

بلخير الحميان.

سيدي موسى المدعو المسعود.

لالا ديما ابنة سيدي موسى.

سيدي محمد المدعو عبد الحي.
دادا حاسا.[19]

نرى من هذه الأسماء أن الأهاليل ليست مقتصرة فقط على الرجال بل حتى النسوة ممن يمتلكن ناصية نسج الأهليل يشاركن في إثرائه. ونظرا للمكانة الاجتماعية والقداسة الدينية التي يحتلها الأهليل ونجد أن النساء لهن مكانتهم فيه هذا دليل على المكانة المحترمة التي تحضي بها المرأة القورارية.

7/ الأهليل: فلسفة القورارين في مواجهة قسوة الحياة:

فيما يتعلق بوظيفة الأهليل سعى معمري إلى أن يبين لنا أن المتأمل في أهليل القورارا ويتمعن في معنى الأشعار التي تقال والموسيقى التي تعزف والحركات الجسدية التي تتناغم مع أحان الموسيقى وقافية الأشعار والوقت الذي يؤدى فيه والمناسبات التي يحيى فيها يكتشف أن الأهليل ليس وسيلة للترويح والتسلية بقدر ما هي منهج فلسفي في فهم الحياة. فأهليل القورارا تعبر عن التأملات الصوفية والفلسفية عند سكان القورارا، وطريقة من طرق مواجهة صعاب الحياة. والذي يحضر هذه الأهاليل، حسب معمري، يجد أنها تعبر عن آلامهم وأحزانهم وأفراحهم وقيمهم ومعتقداتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم. هي طريقة للترويح عن النفس ونسيان الهموم والأوجاع، هي تطهير للنفس وعزاء لها.

وختاما نقول أن إسهامات مولود معمري في الانثروبولوجيا لا تنفصل عن أعماله الأدبية ودراساته اللسانية. وأن غايته كانت الدفاع عن الثقافة الجزائرية وبالخصوص في بعدها الأمازيغي. وقد برهن في مسعاه هذا أنه وطني بامتياز وقد قدم للجزائر الكثير على الرغم من المضايقات والعراقيل التي صادفها في مسيرته الفكرية. فبفضل جهوده أصبح للثقافة الأمازيغية مكانة اليوم؛ سواء في المحافل الوطنية أو الإقليمية أو الدولية. والجميل في مولود معمري أنه آمن بمشروع فكري فوهب حياته كلها من أجله. والأجمل أنه كان يشتغل بعقلية المدرسة حيث أنشأ وكون حوله تلاميذ يحملون لواء مشروعه الفكري.

المراجع والهوامش:

حدث خلاف حاد جدا بشان ما يجب أن تكون عليه الدولة الجزائرية بين من يرى أنه ينبغي أن تقوم على الوحدة ومن يرى أنه ينبغي أن تقوم* على التعدد. ولكل موقف مبرراته التي يستند إليها. وأنوه فقط ان هذا الخلاف مرتبط بالتاريخ والدين والسياسة. أما بخصوص الحكم المتعلق بالاحتلال الفرنسي فهناك استثناءات تنفلت عنه ولا تصدق عليه. وتجدر الإشارة أن هذا المقال لم يضع من أولوياته الخوض في هاتين المسألتين بالقدر الذي يفي الموضوع حقه.

[1] تم الاعتماد في كتابة حياة مولود معمري على المراجع التالية:

http://www.univ-chlef.dz/uhbc/seminaires_2009/el_djamhouria_slimani_ait_saada_Cergy_2009.pdf

http://www.centrederechercheberbere.fr/tl_files/doc-pdf/Mammeri_ecrivain1.pdf

http://www.saidadz.com/pdf.php?type=N&item_id=181

[2] مقابلة مع مولود معمري، عرض و تقديم: محمد عاطف بريكي.

*ارتأينا ترجمة كلمة **Berbère** الفرنسية إلى العربية ب كلمة: أمازيغي لأنها الكلمة الأكثر تداولا في العربية.

[3] Malika kebbas, et al., Mouloud Mammeri: l'intellectuel démocrate impénitent, Casbah, Alger, 2008, P.P. 55.56,

[4] Ibid., p. 56.

[5] Ibid., p. 57.

*كل الاستشهادات تم اقتباسها من نص **مليكة كباس** وقد تم التأكد منها بالعودة إلى النص الأصلي لمقال مولود معمري "**المجتمع الأمازيغي**".

https://neocultureamazighe.com/2014/07/03/la-societe-bebere-de-mouloud-mammeri/comment-page-1/

[6] Ibidem.

[7] Ibid., 58.

[8] Ibid., 58.59.

[9] Ibid., p. 63.

[10] Mouloud Mammeri, Ahellil du Gourara, CRPE., littérature orale. Actes de la table ronde, Alger, OPU., 1982. نقلا عن Malika Kabbes, op., cit., p 92.

[11] Ibid., 93.

[12] Mammeri, Mouloud, *littérature orale l'Ahellil*, Extraits de la revue *Lybica,* Ahellil lybica. P.1

[13] Ibid., pp.3.4

[14] Chérifa CHEBBAH-BAKHOUCHE, Pour la préservation de l'Ahellil dans *La traversée* de Mouloud Mammeri, p.191

[15] Mammeri, Mouloud, *littérature orale l'Ahellil*, Extraits de la revue *Lybica,* Ahellil lybica ., pp. 1.2.

[16] Ibid., p.4.

[17]Ibid., pp.2.3.

[18] [18] Malika kebbas, et al., p. 95.

[19] Mammeri, Mouloud, *littérature orale l'Ahellil*, Extraits de la revue *Lybica,* Ahellil lybica ., p.3